المشرق

الملائكة بازاء العلم والدين

نظر فلسفي لاهوتي للاب لويس شيخو اليسوعي

الكنيسة الكاثوليكيَّة في كلندارها السنوي تذكر غير مرَّة الطغمة الملائكيَّة اجمالا او افراداً بتخصيص احد الايام الثلثة المبرّزين بينهم اعني ميخائيل وجبرائيل ورافائيل فتكرمهم اكراماً عاماً او خاصاً وتقيم الاعياد لذكرهم وتحضُّ ابناءها على الالتجاء الى شفاعتهم. لكنَّ الشهر الذي دخلنا فيهِ اي تشرين الاوَّل قد أُفرز لهذه العبادة ولاسيما لتكريم الملائكة الحرَّاس الذين عهد الله اليهم حراسة بني البشر ليرشدوهم الى كل خير ويصونوهم نفساً وجسماً من كل ضير

فرأينا ان ننتهز هذه الفرصة لنكتب فصلاً في هذا الصدد نجمع فيهِ خلاصة ما يستفاد من العلوم العقلية والدينيَّة بخصوص الملائكة اذ قد قرأنا في بعض المجلَّات والجرائد الوطنيَّة والمصريَّة التي صدرت في هذه المدَّة الاخيرة كلاماً ينافي حقيقة الواقع وينظم في سلك الخرافات ما يرويهِ ارباب الاديان عن هؤلاء الملائكة فنذكر في قسم اوَّل ما يُستدلُّ بهِ على هذا الامر من العلم الصحيح والعقل الصائب ثم نتخطى في قسم ثانٍ الى ما افادنا الوحي في هذا الشأن

ودفعاً للالتباس نقدّم على كلامنا ما نفهمهُ بالملائكة مع جمهور العلماء وعموم الناس فنقول: انَّ الملائكة ارواح منزهة عن المادة والاجسام الهيولية ذات فهم وارادة خلقها الله لخدمتهِ وتنفيذ اوامرهِ . وسنعود الى هذا التحديد في غضون ابحاثنا

١ الملائكة بازاء العلم

إن استقصينا العلوم البشرية سواء كانت في دائرة الطبيعة المحسوسة او في نطاق ما وراء الطبيعة بقي عقل الانسان متحيراً متذبذباً في الجواب عن وجود الملائكة وتعريف احوالهم . اما العلوم الوضعية الطبيعية فسبب سكوتها ظاهر لانها لا تتجاوز حيز المحسوسات والملائكة كما قلنا مجردون عن المادة فلا تشهم يد ولا تبصرهم عين ولا تسمع ركزهم اذن وقس عليه بقية الحواس التي لا تحكم في غير المادة ذات الاقدار المحسوسة من طول وعرض وسمك وعمق الخ . اما سكوت العلوم التي موضوعها ما وراء الطبيعة فلان هذه تبني حكمها على حقائق اولية او ثانوية يثبت العقل صحتها بالمقابلة او بالتخطي من المفعول الى الفاعل . وبديهي ان قضية وجود الملائكة لا تنال بالمقابلة ويمكن نسبة كثير من المفاعيل الظاهرة في الكون الى الله تراً دون توسط الملائكة والارواح

افنقول اذن ان قضية الملائكة خارجة عن حيز العلوم وانها من القضايا التي يجوز للعلم ان يتغاضى عنها ولا يكترث لها ؟ كلا ثم كلا

فان كان العلم قاصراً عن اثبات وجود الملائكة والارواح بنوره الخاص يمكنه ان يستضيء بانوار قريبة منه ترشده الى معرفة الحقيقة

واول ما يلوح للعقل السليم اذا اعتبر العالم وطبقات الكون انه يرى في المخلوقات سياقاً عجيباً يوصل بين كل حلقة منها حتى تكاد تلتحم ببعضها وتشتبك بتواصل تام فيرتقي النظر في كل مواليد الطبيعة من الجماد الى النبات الى الحيوان الاعجم الى الناطق دون عناء . فيا ترى ألا يوجد بين الانسان المركب من قوى مدركة وجسم حيواني وبين خالقه الاله ذي الجلال والكمال المالئ الكون بجبروته الابدي الازلي وعلة كل معلول مكانٌ لحلقة أخرى توصل بين هذه الخليقة ملكة العالم المنظور وربها الواجب الوجود

فالجواب الذي يتبادر اليه العقل برويته وافرازه ان بين الكائنات المنظورة وخالقها الاعلى وسطاً اعني الارواح المخلوقة المجردة عن الهيولي فتكون بطبيعتها المنزهة عن المادة اقرب الى الله ممثلة لكمالاته في كيانها الشبيه بكيانه على قدر ما

يمكن المخلوق المتناهي ان يمثل صورة الخالق غير المتناهي. وهكذا تمثل نوعاً تلك الهاوية العظيمة التي بين الله عزَّ وجلَّ ومخلوقاته المشوبة بكدورة المادة وظلمة الشهوة

وهذا الدليل سبق اليه ائمة الفلاسفة فاختصر القديس توما اللاهوتي رأيهم بقوله: «لا بُدَّ من اثبات جواهر مجرَّدة عن الجسم هي واسطة بين الله والمخلوقات الجسمية. وذلك لانَّ الله بتكوينه المخلوقات انَّما يقصد الخير والخيرُ يتوقف على التشبُّه بالله. وهذا التشبه يكون اتمّ واكمل اذا ماثل المعلولُ علَّتهُ في ما به تُصدر العلَّةُ المعلولَ ولمَّا كان الله يصدر المخلوقات بالعقل والارادة اقتضى كمالُ العالم وجودَ مخلوقات مجرَّدة عن الجسم لا تُدرك الَّا بالعقل فقط»

وقد انتبه فلاسفة العرب الى ذلك فنقل القزويني في عجائب المخلوقات (ص ٥٥) قول واحد منهم فقال:

قال بعض الحكماء ان لم يكن في فضاء الافلاك وسعة السماوات خلائق فكيف يليق بحكمة الباري تعالى تركها فارغة خاوية مع شرف جوهرها وانهُ لم يترك قعر البحار المالحة المظلمة فارغاً حتى خلق فيهِ اجناس الحيوانات وغيرها. ولم يترك جوّ الهواء الرقيق حتى خلق لهُ انواع الطير تسبح فيها كما تسبح السمك في الماء. ولم يترك البراري اليابسة والآجام الوحلة والجبال الراسية الصلبة حتى خلق فيها اجناس السباع والوحوش ولم يترك ظلمات التراب حتى خلق فيها اجناس الهوامّ والحشرات. . . . فالملائكة صلاح العالم وتمام الموجودات وكمال الاشياء بتدبير العليم الذي لا يزيد عن علمهِ مثقال ذرَّة في الارض ولا في السماء

ولنا على وجود الملائكة دليل آخر قريب الى العقل مبني على هذا المبدأ الفلسفي وهو انَّ ما اتفقت عليهِ كافَّة الشعوب والامم لا بُدَّ من الحكم بصدقهِ وصحته اذ انَّ في ذلك الوفاق دليلًا على انَّ الحقيقة طبعها في عقل الانسان مكوّنُ الطبيعة نفسهُ. والحال انَّ القول بوجود الملائكة والارواح حقيقةٌ ثابتة شائعة عند كل الامم بلا استثناء. كما تشهد عليهِ جميع آثارهم وتواريخهم بل كثير من الطوائف الهمجيَّة تعتبر تلك الارواح كآلهة دونهُ تعالى او برفقتهِ عزَّ وجلَّ

ولنا في شهادة التاريخ دليل ثالث يجب على العقل ان يرضخ لهُ ويقرَّ بهِ خانعاً. فان اعتبرنا الاسفار المقدَّسة كتآليف تاريخيَّة فقط حرَّرها رجال ذوو فضل وعلم يوثق برواياتهم كما يُستند الى روايات كتبة صادقين لا غاية لهم تحملهم على الخداع ثمَّ

عالمين محققين لا يسمحون لاحد بان يموّه عليهم بالتدليس والكذب وجب علينا الاقرار بوجود الملائكة اذ لا يخلو سفر من الكتب المنزلة عن ذكرهم مباشرةً بسفر التكوين (٣ : ٢٤) الذي ذكر الكَرُوبين الحارس لجنّة عدن بعد طرد الابوين الاوّلين منها. وذكر الملائكة الثلثة الذين نزلوا ضيوفاً مكرَّمين على ابراهيم الخليل (تك ١٨) ثم الملاكين اللذين انذرا لوط واسرتهُ بحلول غضب الربّ على سدوم (تك ١٩) ثمّ الملاك الذي افرج كربة هاجر واسماعيل في البرّية (تك ٢١). ثمّ الملاك الذي اوقف يدَي ابراهيم عن ضرب ابنه اسحاق (تك ٢٢) ثمّ الملائكة الذين رآهم يعقوب يرقون سلّماً سريّاً وينحدرون منهُ (تك ٢٨). ثم الملاك المتقدّم في طريق بني اسرائيل ليرشدهم الى ارض الميعاد (خروج ١٤ : ١٩ و ٢٣ : ٢٠) ثم الملاك المصرّح ليشوع بن نون بانهُ قائد جيش الربّ (سفر يشوع ٥ : ١٣). ثمّ الملاك الداعي جدعون الى خلاص امتهِ (قضاة ٦). ثمّ الملاك المبشر بمولد شمشون وبدعوتهِ (قضاة ١٣)

ولو تتبّعنا بقيّة تاريخ بني اسرائيل في عهد الملوك رأينا ملاكاً يقوت الياً النبي في البرّية (٣ ملوك ١٩ : ٥ — ٧) وعايناً الملائكة ينقذون السامرة من ايدي ملك الشام (٤ ملوك ٦ : ١٥) وشهدنا ملاكاً يعمل سيفهُ في جيش سنحاريب فيبدّد شمل الاشوريين (٤ ملوك ١٩). ومن منّا يجهل قصة طوبيّا البارّ والملاك رافائيل رفيق ابنهِ الى بلاد ماداي وظهور الرافيم ليطهر شفاه اشعيا النبي (اشعيا ٦ : ٢ — ٧) وكشف الملاك جبرائيل لدانيال النبي (٨ : ١٦) عن زمن مجيء المسيح

والعهد الجديد لا يحيد ذرّةً في هذا الصدد عن مرويّات العهد القديم. افليس الملاك جبرائيل الذي انبأ زكريا بميلاد يوحنّا وبشر مريم العذراء بالسيد المسيح؟ اليس الملائكة الذين اوعزوا الى يوسف بان يذهب الى مصر ليخلص الطفل الالهي من غضب هيرودس ثمّ تقدّم اليهِ بالرجوع عند وفاتهِ ويسكن الناصرة؟ ألسنا نراهم بعد ذلك في آلام السيد المسيح اذ ظهر واحد منهم للربّ في بستان الزيتون ليقوّيهُ (لوقا ٢٢ : ٤٣) ثمّ في قيامة المسيح يبشرون تلاميذهُ بهذا الخبر المبهج. ونراهم بعد صعود الربّ يعزّون التلاميذ (اعمال ١) ويكسرون اغلال بطرس وينتحون ابواب سجنهِ (اعمال ١٢) ويعهدون اليهِ معموديّة الامم (اعمال ٨) وينشطون قوى

بولس في غضون سفره بحرًا (اعمال ٢٧) ويميطون ستر الغيب عن اعين يوحنا الحبيب (سفر الرؤيا)

فترى انَّ شهادة اصدق المؤرخين متواترة منذ خلقة الابوين الاوَّلين الى زمن الحواريين في اثبات وجود الملائكة . فجاءت شواهدهم مؤيدة لما يتبادر الى حكم العقل السليم ولما اتفق عليه رأي كل الشعوب . فهي اصوات ثلثة توافقت على هذه القضية البينة والحقيقة الراهنة لا يستطيع ارباب العلم الاضراب عنها وتصميم سمعهم دونها . ومنها تتضح سخافة اولئك الكتبة العصريين المتشدّقين الذين يسخرون باهل الدين لاعتقادهم وجود الملائكة وينسبون عملهم الى الخرافات

٢ الملائكة بازاء الدين

فان كان العقل النيّر والذهن الصائب لا يجد في حقيقة وجود الملائكة ما يُستغرب دَعْنا نتخطى الآن الى ما يُعلمنا الدين المستقيم من امر اولئك الارواح وصفاتهم واحوالهم المختلفة . فترى كم يفيدنا الوحي الالهي الذي يوسع المعارف البشريَّة ويهدي الامم الحائمة لهُ الى حقائق ما كانت لتدور على خلدهم وتخطر على بالهم فيعقلها الانسان بعلم اصدق واثبت من العلوم الطبيعيَّة نفسها

أ ﴿ اسماء الملائكة ﴾ قد دعا الكتاب الكريم الملائكة باسماء مختلفة تدلُّ كلها على عظم شأنهم وسموّ مقامهم . فسمّاهم بالارواح حيث قال داود في مزاميره (١٠٣ : ٦) « باركي يا نفسي الربّ . الصانع ملائكتهُ ارواحاً » وكذلك قال بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين (١ : ١٤) « اليس الملائكة جميعهم ارواحاً تُرسل للخدمة » . وقد دعاهم أيوب (١ : ٦ و ٢ : ١) « بني الله المائلين امام الله » : ويُدعون في انجيل متى (١٨ : ١٠) « بسكّان السماء » كما يدعوهم النبي داود (مز ١٠٣ : ٢١ و ١٤٨ : ٢) « بقوّات الربّ » « وجنود العلي » . وكذلك يدعوهم سفر اخبار الأيام الثاني ١٨ : ١٨ وسفر نحميا (٩ : ٦) « بجند السماء » . وكل هذه الاسماء تشير الى رفعة قدرهم وخواصهم الراقية فوق البشريَّة . وانَّما اسمهم الشائع انما هو « الملاك » ومعناه في العربيَّة وبقيَّة اللغات السامية « المُرسَل » دلالةً الى مهمتهم الخاصَّة بان يكونوا رُسُلاً للعلي ينفذهم الى كل الخدم المنوطة بجلالهِ تعالى

ولم يُذكر من اسماء أعلام هؤلاء الملائكة غير ثلاثة اعني ميخائيل كرئيس جند السماء " (دانيال ١٠ : ١٣ ورؤيا ١٢ : ٧) ومعنى اسمه " مَن كالله " . ثم جبرائيل اي قوة الله (دانيال ٩ : ٢١ ولوقا ١ : ١٩ و ٢٦) ثم رفائيل اي شفاء الله (طوبيا ١٢ : ١٣) وقد وردت اسماء غيرهم من الملائكة في الكتب غير القانونية والاسفار الموضوعة واناجيل الزور كجرمئيل واورونيل وغير ذلك مما ليس تحته كبير امر

٢ في تكوينهم ارتأى بعض قدماء الفلاسفة الوثنيين او المبتدعين ومن جملتهم ابن رشد ان الملائكة متصفون بالتقدم موجودون منذ الازل اما مستقلين بالوجود عن الله سبحانه وتعالى واما صادرين عنه منذ الازل . وكلا القولين باطل لان الله عز وجل هو وحده واجب الوجود موجود بذاته وكل ما سواه محدث والمحدث معلول لا بد له من علة تخرجه من العدم الى الكون . فالملائكة اذن خلائق الله أبدعهم بمشيته وخولهم جوهرهم وكيانهم . اما الزمن الذي جرى فيه تكوين الملائكة فالآراء فيه متباينة والاسفار الالهية لم تصرح به وانما تشير الى ان ذلك الامر حصل قبل خلقة الانسان في بدء تكوين العالم ويرجع مفسرو الكتب المقدسة كون موسى نوه بخلقة الملائكة في مفتتح سفر التكوين حيث قال : " في البدء خلق الله السماء والارض " فقوله " السماء " يشمل الملائكة سكان السماء وزينتها . وزاد دستور الايمان في نيقية تصريحاً بقوله : " نؤمن بالله واحد . . . خالق السماء والارض جميع الذي يُرى وما لا يرى " فنظم الملائكة في عداد الامور الخارجة عن دائرة عالم الحس . وقد اثبت ذلك المجمع اللاتراني الثالث سنة ١٢١٥ فحرم البابا لوقيوس الثالث الذين ينكرون " ان الله في بدء الزمان خلق من العدم كلا الكائنات المنظورة وغير المنظورة والخلائق الروحية اي الملائكة والجدية اي العالم الهيولي والخلائق الناطقة المشتركة بينهما اي الطبيعة البشرية " وقد نقل المجمع الفاتيكاني قول المجمع اللاتراني واثبته سنة ١٨٧٠

٣ في عددهم لم تذكر الاسفار الالهية عدد الملائكة وما يمكن العقل ان يرتئيه بالاجمال ان هذا العدد لا يحيط به احصاء بشر فلا بد ان يكون وافرا جدا . وذلك اننا نرى اعمال الله متناسبة اذ صنع كل شيء على قول سفر الحكمة (١١ : ٢١) " بمقدار ووزن وعدد " فان كان عالم الاجساد المادي المنظور قد توفرت فيه

المخلوقات المتنوعة التي لا يحصيها غيرهُ تعالى أفليس الاحرى ان يكون عالم الارواح وهو اشرف من العالم الهيولي ممتازاً بوفرة العدد والانواع التي تنطق بعظمة الخالق وقدرته غير المتناهية. وفي الواقع قد رمز في الكتب المنزلة الى هذا العدد البالغ. فانَّ السيد المسيح ذكر في انجيل متى (٢٦ : ٥٣) انهُ يستطيع ان ينال من ابيهِ « اكثر من اثني عشرة جوقة من الملائكة ». ورأى منهم يوحنا الرسول في جليانهِ (٥ : ١١) « ربوات ربوات والوفٌ الوف » وكان دانيال (٧ : ١٠) قبل ذلك رأى في خدمة الربّ الالهِ « الوف الوف يخدمونهُ وربوات ربوات واقفين بين يديهِ ». ومن هذا يتضح انَّ عدد الملائكة يفوق كلّ احصاء. وانَّ الله وحدهُ يحيط بعددهم

٤ ﴿ طبيعة الملائكة ﴾ قد غرَّ بعض الكتبة الاقدمين بزاعم افلاطون وباقوال كتب دينيَّة ظنُّوها منزلة كسفر اخنوخ ورؤيا آدم فجعلوا الملائكة مع تجرُّدها عن الجسم غير مجرَّدة عن المادة فزعموا انَّها حاصلة على مادة هوائيَّة او جوهر هيولي لطيف تستعين بهِ على العمل وبلغ التطرُّف ببعضهم الى ان نسب الى اولئك الارواح معظم الافعال البشريَّة من اكل وشرب وزواج مستندين في ذلك الى بعض آيات الكتاب المقدَّس التي اساؤوا فهمها او حملوها على غير معانيها. وما اجمع عليهِ علماء الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ مئين من السنين انَّ الملائكة ارواح صرفة لا يخالطها شيءٌ من كدورة المادة. ومن ثمَّ ينكرون انَّ هذه الارواح مركبة من صورة ومادَّة كمواليد الكون وانَّها تعمل اعمالاً حيويَّة في الاجسام وانَّها تحلّ في المكان بملأة اجزائهِ او تتَّصف بالقوى الشهوانيَّة والغضبيَّة لان كل ذلك خاصّ بالمادَّة والارواحُ العلويَّة مجرَّدة من كل مادَّة. وتجرُّدها هذا لا يجعلها في رتبة الله سبحانهُ وتعالى لانها بعيدة عن كمالهِ من وجوه متعدّدة فانَّ قواها محدودة مُحدَثة مقيَّدة بخلاف الخالق الذي لا يحدُّهُ زمان ولا مكان. وكذلك في جوهر الملائكة نوعٌ من التركيب بما فيها من الفعل والقوَّة المتعاقبين اما الله عزَّ وجلَّ فهو وحده فعلٌ محض

اما نصوص الكتب المقدَّسة التي تنسب بعض الاعمال الماديَّة الى الملائكة ففيها نظر فمنها ما لا يعني الملائكة كقول سفر التكوين (٦ : ٢) « انَّ بني الله دخلوا على بنات الناس » فليس المراد ببني الله الملائكة كما ظنَّ البعض ولكن

ابناء شيث الذين كانوا صالحين ثم استسلموا للشهوات اما الملائكة فيعلون فوق هذه الشهوات علواً كبيراً وسوف يشبههم الابرار في القيامة كما قال السيد المسيح (متى ٢٢ : ٣٠) : « انهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ولكن يكونون كملائكة الله » — ومن هذه النصوص الكتابية ما يصح عن الملائكة على طريقة المجاز اذ اتخذ بعضهم باذن الله اجساماً مستعارة أما ظهروا للبشر كرافائيل الملاك الذي رافق طوبيا متقمصاً بصورة جسدية فاظهر في كل حركاته وسكناته واكله وشربه انه انسان مثله لكنه صرح له بعدئذ (طوبيا ١٢ : ١٩) انَّ ذلك انما كان مجازاً وتلطفاً فقال : « لما كنتُ معكم كان يظهر لكم اني آكل واشرب وانما انا اتخذ طعاماً غير منظور وشراباً لا يبصره بشر »

فروحانية الملائكة تلوح من هذه الآيات وغيرها كالشمس في رائعة النهار. وبثبوت هذه الحقيقة تثبت حقائق اخرى هي كنتائج لاحقة بها. من ذلك خلود تلك الارواح اذ لا يطرأ عليها فساد يستطيع ان يشوّهها والروح من ذاتها ثابتة الوجود لا يقدر ان يلاشيها غير الله وان كان الله لا يلاشي ذرة من عالم المادة مع فساد المادة وتحولاتها فما قولك بالارواح غير القابلة للفساد

ثم انَّ هذه الارواح مخلدة كما هي روحانية فلا بُدَّ ان تحيا حياةً جديرة بها اعني حياة شبيهة بالروح الخالق وذلك بعقلها وارادتها. وانا عقلها يفوق العقل البشري من حيث كماله وسرعة ادراكه وطريقة معرفته وهي لا تحتاج الى ان تستقي معارفها عن المحسوسات فتُجرّدها مثلنا عن المادة بل تعقلها في ذاتها دون تدريج ودون توسط وتدرك ماهيات كلّ الاشياء بلا تركيب ولا تفصيل ولا اتخداع باعراضها. وكذلك ارادتها تميل طبعاً الى ما يدركهُ عقلها من الخير الكلي ميلاً كاملاً لا يعترج بكدورة الشهوة كارادة البشر مع حرّية الملائكة للاختيار بين الامور المتباينة. على انَّ عقولهم تختلف وفقاً لطبقاتهم فيعقل بعضهم من الحقائق ما لا يعقلهُ غيرهم وكذلك تختلف قوة ميلهم الى المعقولات على مقتضى ادراكهم لماهياتها

٦ ﴿ حالة الملائكة من النعمة ﴾ انَّ الملائكة مع شرف طبيعتهم فوق الطبيعة البشرية هم بعيدون عن الله بعداً غير متناهٍ فطبيعتهم رغماً عن خلوصها من كدورة المادة لا توصلهم الّا لمعرفة الله ومحبته من حيث هو مبدأ لوجودهم

١

٢

٣

٤

١ صورة السيد المسيح بين ملاكين في كنيسة القديسة إغاثا في رافنّا (نحو السنة ٤٠٠م)
٢ صورة ميخائيل رئيس الملائكة في كنيسة رافنّا من القرن السادس
٣ صورة ملاك الانتصار في ديبتيس رومية
٤ ملاك في يده صليب متوّج من كتاب مخطوط في القرن السادس

الطبيعي وذلك ملائم لطبعهم. امّا معرفة الملائكة لله وتوجّه ارادتهم اليهِ من حيث هو موضوع سعادتهم الابديّة فذلك يفوق طبيعتهم ومن ثمّ يحتاجون الى نعمة خاصّة من الله لتزهلهم لرؤيتهِ تعالى بالذات ويحملوا بذلك على سعادتهم القصوى على انّه تعالى لم يخوّل تلك النعمة ملائكتهُ الّا بعد امتحانهم ليتالوا السعادة الابديّة بوجه الاستحقاق فجعلهم بعد خلقهم في حالة يمكنهم فيها ادراك سعادتهم باختيارهم الشخصي وعملهم الخاصّ مع النعمة الالهيّة. ولمّا بلّغهم الله بعضَ اوامره ليمتحن طاعتهم قام بعضهم عن الخضوع لمشيتهِ تعالى ونشروا راية العصيان وكان زعيمهم ابليس خزاه الله خُدع بحسن صفاتهِ ونسي انّ محاسنهُ من كرمهِ عزّ وجلّ فنسبها الى نفسهِ وبخس حقوقهُ تعالى. ثمّ تبعهُ في تمرّدهِ قسم من مشايعيهِ على خلاف ميخائيل وغيرهِ من الملائكة الصالحين الذين انتصروا لله وخنعوا لمشيتهِ وقاوموا الارواح المتمرّدة وجرت تلك الوقائع التي وصفها يوحنّا الحبيب حيث قال (الرؤيا ١٢: ٧ — ١١): «حدث قتال في السماء. ميخائيل وملائكتهُ كانوا يقاتلون التنين وكان التنين وملائكتهُ يقاتلون فلم يقووا ولا وُجد لهم موضعٌ بعد في السماء. فطُرح التنين العظيم الحيّة القديمة المسمّى ابليس والشيطان الذي يضلّ المسكونة طُرح الى الارض وطُرحت ملائكتهُ معهُ». وقال السيد المسيح مشيرًا الى سقوط ابليس (لوقا ١٠: ٨): «اني رأيت الشيطان ساقطاً من السماء كالبرق»

فمذ ذاك الحين نال الملائكة الابرار سعادتهم القصوى برؤية الذات الالهيّة كثواب امانتهم في خدمة الله التي لم يعودوا يستطيعون الحياد عنها الى ابد الدهر ونال الشيطان مع حزبهِ العقاب الذي استحقّهُ بعصيانهِ فُفصل عن شركة الله بل زُجّ في الهاوية وجحيم النار الذي خلقهُ الله لجزاء معصيتهِ فعوقب بالنار الماديّة وهو روح فوق المادّة. على انّ طبيعة الشيطان لم تتغيّر مع ذلك فبقي روحاً مجرّدًا عن الهيولي لم يحرمهُ الله قوى عقلهِ وارادتهِ وان كان منذ سقوطهِ يوجّهها الى الشرّ والأذى الى الطبيعة البشريّة التي يريد اجتذابها الى عصيانهِ ليكون نصيبها كنصيبهِ. الّا انهُ لا يستطيع ان يأتي بضرر بدون اذنهِ تعالى فمن لاذ بهِ وعاذ برحمتهِ نجا من مكايد ابليس خزاهُ الله

هذا ما افادتنا بهِ الوحي الشريف عن حقيقة الملائكة الصالحين والاشرار وهو

مطابق لأحكام العقل الصائب والآثار الاجتماعيَّة بين ارقى الامم تمدُّناً وحضارةً فيزيل كثيرًا من المشاكل التي لا يحلُّها الملحدون في تاريخ البشريَّة شاؤوا ام ابوا

ولا بأس هنا من الاستطراد في القول لتزييف مزاعم الذين ينكرون وجود الابالسة وينسبون الى الخرافة ما رواه عنهم كتبة الاسفار الالهيَّة . فان آثار اعمال الشياطين ظاهرة بين كل الشعوب الوثنيَّة حتى يومنا . ولا يمرّ علينا سنة دون ان نطَّلع على شيء كثير من ذلك في كتابات المرسلين في الصين والهند ومجاهل افريقية ممَّا تنيئُهُ اوثق الشهود بالعيان . هذا فضلاً عن تاريخ كل الامم بلا استثناء وان اختلفوا في اوصافهم وتعريف طبائعهم وتبيان خواصهم وجعلوهم في عداد الجانّ والمخلوقات الوهميَّة ولو لم يوجد في زماننا غير خوارق السرتم لكانت كافيةً لإثبات وجود الارواح النجسة وتأثيرها في العالم البشري

٧ ﴿ مراتب الملائكة ﴾ سبق انَّ الله يصنع كل شيء بوزن ومقدار . فمن المحال ان يكون خلق ذلك العدد العديد من الارواح الذي نوَّهنا به دون ان يجعل فيه نظاماً وترتيباً . والى ذلك تُشير الآيات التي مرَّ ايرادها . فانَّ الملائكة يُدعَون بجيش السماء وبجند الله وبفرق سماويَّة وكل ذلك يثبت وجود نظام تامّ بين الملائكة وفي كل فئة من فئاتهم

ولكن يا تُرى ما هو هذا النظام وهل كشف الله القناع عنهُ نوعاً ليقف الانسان على بعض محاسنه . فالجواب على ذلك انَّ الوحي افادنا شيئاً من ذلك ايضاً فان استقرينا آيات العهد القديم والعهد الحديث وجدنا ذكرًا لتسع طبقات من الملائكة فذُكر الكروبين في سفر التكوين (٣ : ٢٤) وغيره من الاسفار المقدَّسة . وذكر لشعيا النبي السرافيم (٦ : ٢ و ٦) . واورد بولس الرسول في رسالته الى اهل افسس (١ : ٢١) اسماء لاربع طبقات اخرى وهم الرئاسات والسلاطين والقوَّات والسيادات فقال ان السيد المسيح جلس من عن يمين الآب فوق كل هذه الطبقات الملائكيَّة . وكرَّر ذلك في رسالته الى اهل كولسي (١ : ١٦) وزاد على تلك الفئات فئة خامسة وهم العروش فقال : « انَّ به (اي السيد المسيح ابن الله) خُلق جميع ما في السماوات وعلى الارض ما يُرى وما لا يُرى عروشاً كان او سيادات او رئاسات او سلاطين » . وصرَّح يهوذا الرسول (ع ٩) وبولس الاناء المصطفى (في رسالته الاولى الى تسالونيقي

١٣:٤) باسم رؤساء الملائكة . اما الملائكة فاسمهم في كل الاسفار المقدَّسة ورد أُطلق هذا الاسم على كل طبقات الملائكة عموماً وان كان خاصاً بادنى طبقاتهم

وهذه الطغمات التسع لها مراتب معلومة يقسمها بعض الآباء واللاهوتيين الى ثلاثة اقسام : قسم اعلى وهم الكروبين والسرافيم والعروش الذين يقربون من جلالهِ تعالى ويقومون بخدمتهِ الخاصة . وقسم اوسط وهم السيادات والقوّات والسلاطين الذين يبلّغون اوامرهُ تعالى الى الفئات التي دونهم ويُظهرون قوّة الله في اعمالهِ الخفيَّة والعلنيَّة . وقسم ادنى وهم الرئاسات ورؤساء الملائكة والملائكة الذين عُهد اليهم خصوصاً امر العالم الهيولي ولا سيما تدبير الانسان الناطق

وهذا القليل الذي نعرفهُ عن الملائكة ورتبهم لا يكاد يبلُّ الغليل حتى انَّ ائمة علماء الكنيسة عدُّوا معرفتنا للملائكة ورتبهم اجرى ان تُدعى جهلاً . وترى الآباء نفسهم لا يتفقون في عدد مراتب الملائكة واقسامها وترتيبها وخواصها . قال اكبرهم واثبتهم علماً واسماهم عقلاً القديس اوغسطينوس في رسالة كتبها الى اوروسيوس(١ : « لا شكَّ انَّ في السماء عروشاً وسيادات ورئاسات وقوّات وانا اؤمن بذلك ايماناً حقًّا وكذلك لا ريب في انَّ بينهم فروقاً ولكن ان سألتني ما هي وباي شيء يختلف بعضها عن بعض اقررتُ بجهلي مهما أدَّى اقراري الى ازدرائك بي بعد ان دعوتني بالملقان الكبير »

٨ ﴿ اعمالهم ﴾ انَّ جهلنا بمراتب الملائكة يتناول ايضاً اعمالهم فلا يمكننا القطع بما يقلّدهم الله من المهن لخدمتهِ او لخدمة الكائنات . وغاية ما يقال عنهم انهم منقطعون الى تسبيح الله واقام اوامرهِ . قال القزويني في عجائب المخلوقات (ص ٥٥) : « انَّ الملائكة . . . لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يُؤمرون طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس وانسهم بذكر الله وفرَحُهم بعبادتهِ خلقهم الله تعالى على صور مختلفة واقدار متفاوتة لاصلاح مصنوعاتهِ واسكان سماواتهِ »

وقد سعى مع هذا بعض الكتبة ان يعدّدوا اعمال الملائكة ويميّزوا بين مهنهم فيزّوا بينهم حملة العرش الالهي والواقفين على حضرة القدس المستغرقين بجمال الربوبيَّة

---

١) اطلب مجموع الاباء اللاتينيين لمين (Migne P. L. XLII, 678)

والمداومين على التقديس والتسبيح والتهليل والمبلّغين لاوامر العلي والموحين باسراره الى اوليائه والموكلين بالامم والشعوب والجماعات الدينية والكنائس وروسا الدين والنازلين بالبركات على الخلائق والصاعدين الى الله بمبرّات البشر وحسناتهم وصدقاتهم وصلواتهم والمؤتمنين خصوصاً بالمختارين وخدمة سرّ الفداء والمعهود اليهم حفظ نظام العالم والافلاك

فهذه وما اشبهها من الاعمال الشريفة قد اسندها اولئك الكتبة الى آيات شتى وردت في الاسفار الالهية كرؤى الانبياء اشعيا وحزقيال ودانيال وكتاب طوبيا وجليان مار يوحنا الحبيب

٩ ﴿ الملائكة الحرّاس ﴾ واخصّ هؤلاء الارواح بالذكر الملائكة الموكلون ببني آدم المعروفون بالملائكة الحرّاس. ففي الكتب المنزلة ما يثبت وجودهم قال النبي داود (مز ٩٠) « انّ الرب يوصي ملائكته بكَ ليحفظوك في جميع طرقك على ايديهم يحملونك لئلّا تصدم بحجر رجلك . . . انجيه لانهُ تعلّق بي ». وأصرح من ذلك قول متى الرسول عن ملائكة الاحداث (١٨ : ١٠): « احذروا ان تحتقروا احد هؤلاء الصغار فاني اقول لكم ان ملائكتهم في السماوات كل حين يعاينون وجه ابي الذي في السماوات ». ومعظم الآباء في شرحهم لهذه الآية يستنتجون منها حقيقة وجود الملائكة الحرّاس لكافة البشر ولكل من افرادهم نخصّ منهم بالذكر اوريجانس المعلم والقديس يوحنا ذهب والقديس غريغوريوس نيصص والقديس امبروسيوس. قال القديس ايرونيموس في تفسيره (Migne, P. L, XXVI, 130): « ما اعظم شرف النفوس التي خوّل الله كل واحدة منها ان يقوم ملاك بحراستها من اوّل حياتنا الى ختامها »

والحقُّ يقال انّ الله ذا الجود والرحمة لا يذر خليقةً أيّةً كانت دون ان يشملها بعنايته وعناية ملائكته أفيمكنهُ ان يحرم من هذه النعمة اشرف خلائقه الجديّة المدعو بتلك الكون المحسوس مع ما يتهدّد جسدهُ ونفسهُ من المخاطر في كل اطوار حياته. وليس هذا مقصورًا على المؤمنين بل يعمّ كل فرد من افراد البشر. وهذه الحقيقة وان لم تكن من عقائد الايمان الّا انها شائعة بين اللاهوتيين ومعلمي الكنيسة حتى انّ تاركها لا يسلم من الملام. فشكرًا لذاك الاله الجواد الذي انعم علينا بنعمة

كهذه ان يصحب كلَّ فرد منّا احدُ امراء بلاطهِ السماوي ليرشدنا الى الخلاص وينير عقولنا ويحيد بنا عن الاثم وينشطنا على عمل الخير ويحرّك قلوبنا على الانابة الى الله ويسعفنا في كل حاجاتنا نفساً وجسماً ويرافق روحنا امام الديّان ساعة موتنا

١٠ ﴿ هيئة الملائكة وصورهم ﴾ الملاك كما سبق جوهر مقدّس عن كثافة المادّة الّا انّ الانسان مركب من جسد ونفس لا يستطيع ان يُدرك الغير المنظور الّا مجسماً على صورة منظور حتي. فلمّا اراد ان يمثل لعينيهِ صورة الملائكة فكّر اوّلاً في طبيعتهم المجرّدة عن الهيولى فسمى المصوّرون بالاشارة الى براءتهم فتارة البسوهم ثياباً بيضاء كالثلج وهكذا ظهروا بعد قيامة المسيح (متى ٢٨ : ٣) وتارة جرّدوهم عن كلّ ثوب دلالةً الى جوهرهم اللطيف المنزّه عن الماديّات والشهوات

ثمّ افتكر الانسان في حالتهم من المجد ورفعة المقام فرمز عن ذلك برموز مختلفة فصوّرهم في مقتبل الشباب دلالةً على خلودهم وجعل اكليلاً من النور حول هامتهم او الحفهم النورَ اشارةً الى كونهم ارواحاً نورانيّة او اقامهم في وَقود النار تنويهاً باضطرامهم بحبّ الاله او البسهم الارجوان الفاخر معلناً بسعادتهم ورفعة شأنهم في ملكوت الله

واحياناً كثيرًا تأمّل المر. اعمالَ الملائكة فاراد ان يخرجها بصورة محسوسة. فمثّل الملائكة سجودًا وركوعاً امام الحضرة القدسيّة او صوّرهم باجنحة تنويهاً بسرعة انجازهم للاوامر العلويّة. وهكذا ظهروا لاشعيا النبي ولحزقيال وليوحنّا الحبيب. وكثيرًا ما يحتجبون باجنحتهم امام عرش الله هيبة ووقارًا. ومنهم من صوّرهم وبايديهم آلات الطرب يدلُّ بذلك الى تسابيحهم المتواصلة لجلالهِ تعالى. ويصوّرون الحرّاسَ منهم ممسكين بايدي الاحداث ليصونوهم من كل الآفات او يمشون في رفقة الموتى ليدخلوا بارواحهم الى النعيم بعد وفاتهم. وربّما صوّروا الملاك جبرائيل مبشرًا البتول وبيدهِ سوسنةٌ بهيّة وصوّروا ميخائيل بهيئة قائد جند يدوس تحت رجلهِ الملاك المارد. وصوّروا رفائيل مرشدًا لطوبيّا في طريقهِ

فترى انّ كل هذه التصاوير كإعلان البشر بمعتقداتهم في وجود الملائكة وكاقرار بصفاتهم الجليلة وخواصهم الفريدة

١١ ﴿ اكرام الملائكة ﴾ تقرَّر في ما سبق انَّ الارواح الملائكيَّة مقدَّسة ومتصفة بكل الصفات السامية التي تجعلها مرضيَّةً في اعين الله عزيزةً على قلبهِ وانَّها في رتبة اوليائهِ القديسين. وكلُّ من كان في هذا المقام يستحقُّ الاكرام ويستوجب العبادة كأنَّ الملائكة خلائق مستقلَّة بل كاصدقاء الله واصحاب ميَّتهِ ولا يقولنَّ القائل انَّ تلك العبادة تبخس حقوق الخالق. حاشا وكلَّا لانَّ اكرام تلك الارواح والتعبد لها والالتجاء الى شفاعتها في ضيقات الحياة انَّما هو عائد اليهِ تعالى الذي خلقها وخوَّلها تلك الصفات الجليلة. افيقال انَّ اكرام نائب الملك اهانةٌ للملك؟ او ليس هو بالحري واجب نظرًا الى علاقة النائب بملكهِ؟ وقد قال الربُّ غير مرَّة ان كل ما نصنع باحد رُسُلهِ ونوَّابهِ فبهِ نصنعهُ. وزد على ذلك ان للملائكة فضلًا آخر على البشر وذلك حراستهم لهم والاهتمام بشؤونهم الروحيَّة والجسديَّة. فكيف يتغاضى الانسان عن شكرهم وطلب حمايتهم والمجاهرة باكرامهم. افلا يكون تغاضيهِ نكرانًا للجميل؟

وان اعترض المعترض بقولهِ ان الرسول بولس في رسالتهِ الى اهل كولسي (٢: ١٨) نهى عن عبادة الملائكة اجبنا ان كلامهُ هناك عن اكاذيبهم كآلهة كما كان يفعل الوثنيُّون وبعض المبتدعين من اللاأدريين. وعلى هذا المنوال نهى الملاكُ يوحنَّا الرسولَ عن السجود لهُ في سفر الرؤيا (١٩: ١٠) وقس عليهِ بقيَّة الاعتراضات التي اوردها بعض البروتستانت وهم لم يدركوا معنى العبادة والاكرام كأنَّنا لا نفرق بين واجباتنا الاوَّليَّة للخالق والاكرام الثانويّ للقديسين والملائكة وشتَّان ما بينهما. قال اوسابيوس القيصري في كتاب الايضاح الانجيلي (Migne, P. G., XXII. 553): « انَّ لهُ خدَّامًا مقتدرين وقوَّاتٍ قائمة في انجاز اوامره فهؤلاء نحن نكرمهم الاكرام اللائق (κατὰ προσῆκον τιμῶντες) ولكنَّنا نسجد لله وحدهُ ». وكرر ذلك القول في محلٍّ آخر (ibid., XXII, 193) بكل صراحة: « اننا قد تعلَّمنا ان نوقِّر هذه الارواح السماويَّة لاجل شرفها ورفعة مقامها دون ان نخلّ بواجبات عبوديَّتنا لله وحده »

١٢ ﴿ اتفاق الكنائس الشرقيَّة والغربيَّة بخصوص الملائكة ﴾ انَّ الخلاف الواقع بين البيع الشرقيَّة والغربيَّة في بعض حقائق الايمان لم يمسَّ في شيءٍ معتقدهما في اخصِّ القضايا المنوطة بالملائكة فلو استقرينا كل الطوائف النصرانيَّة

من يونان وسريان وقبط وارمن وجدنا تعاليمهم في هذا الصدد متشابهة كما يظهر من نصوص طقوسهم واقوال معلميهم . فكلهم يتفقون في الاقرار بوجود الملائكة وبحقيقة جوهرهم المجرَّد عن الهيولي وكذلك يعتقدون وفرة عددهم واختلاف مراتبهم وسقوط بعضهم ونفيهم من السماء ويقرُّون بكون الآخرين قائمين بخدمة الله ومتممين لاوامره في كل ما يُعهَد بهِ اليهم ويصرّحون بوجوب اكرامهم بالنسبة الى الربّ سيدهم ويخصُّون بعض الاعياد لهذه الغاية . فكلُّ هذه المعتقدات لا تختلف فيها كنائس الشرق عن الغرب مع وجود بعض اختلاف في امور ثانوية تعدَّدت فيها الآراء بين العلماء دون ان تحكم الكنيسة فيها الحكم الفصل . ودونك بعض شواهد من هذه الطوائف تدلُّ على قولنا

فانَّ الكنيسة اليونانيَّة تذكر كل يوم اثنين الملائكة وتطلب معونتهم وفي السواعي دعاء للملائكة وصلاة للملاك الحارس . وفي القدَّاس صلاة الى الله تطلب منهُ ان يرسل « ملاك السلام والدليل الامين وحارس النفس والجسد » هذا فضلًا عن عدَّة اعياد في كلندارها لذكر الملائكة

انَّ اقدم الآثار السريانيَّة منذ القرن الرابع مباشرةً بالحكيم افرهط ثم مار افرام وبقيَّة الآباء . وكذلك الطقوس في الكنائس الكلدانية والسريانيَّة والمارونية ومثلها كتب الكنائس النسطوريَّة واليعقوبيَّة مشحونة بذكر الملائكة وامتيازاتها وطغماتهم واعمالها . قال افرهط في ميمرهِ الثامن عشر (طبعة باريس ص ٨٢٧) : « انَّ لله من الخدَّمة العاريين الوف الوف الذين يمجّدون اسمهُ ويعظمونهُ ويصعدون وينحدرون لاتمام اوامرهِ في سرعة البرق . مقامهم في اعلى عليين وكلهم بفم واحد يعلنون بجبروت الله . كلهم مختارون كلهم محبوبون كلهم اقوياء وهم ينجزون مع ذلك اوامرهُ تعالى بخوف وارتعاد . . . كلهم يرددون تسبحة التقديس هاتفين : قدُّوس قدُّوس قدُّوس الرب اله الصباؤوت الارض كلها مملوءة من مجدهِ »

وقد نقل اغاتنج اوَّل مؤرخي الارمن في تاريخهِ كلام القديس غريغوريوس المنوِّر عن الملائكة قال : « خلق الله الملائكة في البدء من النور وحلَّاهم بالضياء الساطعة وخوَّلهم العقل والفهم واتخذهم كخدمتهِ ليبلغوا اوامرهُ عزَّ وجلَّ الى الخلائق الناطقة » . ومثلهُ إزنيك الاسقف في القرن الخامس قد وصف الملائكة كارواح

مجرّدة عن الجسد وخصهم بكلّ خواصّ الارواح نافياً عنهم كل فساد وتغيير وتوالد ونموّ الخ . والكنيسة الارمنيّة كبقيّة الكنائس تستشفع بالملائكة وتكرمهم على حسب مقامهم في صلواتها الطقسيّة

فناهيك بهذا الاتفاق دليلاً قاطعاً على حقيقة تعاليم الكنيسة عن الملائكة وفي الآثار القديمة ما يؤيد هذا التعليم فانّ العلّامة البندكتي دون لوكلارك (H. Le - clercq) جمع في معجم الآثار النصرانيّة (Dictionnaire d'Archéologie chrétienne) كتابات قديمة وتصاوير مختلفة يرقى بعضها الى القرن الثاني او الثالث وُجدت في دياميس رومية وبلاد لا تدع شكّاً في معتقد قدماء النصارى بوجود الملائكة وسائر امتيازاتهم فعليك بها

وفي الختام نكرّر ما افتتحنا به مقالتنا انّ نكران بعض الكتبة الحقائق المنوطة بالملائكة ونسبتها الى الاختراعات والخرافات ادلّ دليل على سخافة عقل اولئك المتحذلقين وجهلهم المطبق اذ لا يتجاوز عقلهم دائرة المادّة فيحصرون العالم كلهُ مع عقلهم في هذا النطاق الضيق انارهم الله

مقالتان قديمتان في قوس قزح

نشرهما الاب لويس شيخو اليسوعي

تَوطِئَة

انّ العرب الذين تعنّوا آثار اليونان والسريان في علم الهيئة ووصف الكواكب وحركات الافلاك لم يخلفوا لنا الّا شيئاً قليلاً عن الظاهر الجوّيّة كالحرارة والبرد وثقل الهواء والامطار والثلوج . ولعلّ السبب انّهم لم يعرفوا تلك الآلات اللطيفة التي وضعها علماء القرون الاخيرة كالترمومتر والبارومتر ومقاييس الامطار والاهوية . ومن ذلك قوس الغمام المعروف بقوس قزح فانهم لم يكتبوا فيه الّا القليل الزهيد وذلك غالباً في اثناء كلامهم عن المناظر والبصريّات وقد راجعنا قوائم المخطوطات العربيّة في المكاتب الاوربيّة وغيرها فلم نجد بينها ذكراً لقوس قزح